أسرار الطواف

الحمد لله الذي جعل البيت العتيق مثابة للناس وأمنا، وأكرمه بالنسبة إلى نفسه تشريفًا ومنة، فرض علينا حج بيته الحرام، وجعله قبلة للأنام، يردونه ورود الظمآن، طامعين في مغفرة الودود المنان، واختار من بين خلقه سماعًا أجابوا إليه دعوته وصدقوا كلمته.

فأعظم بعبادة يعدم الدين بفقدها الكمال

ويساوي تاركها بجحوده اليهود والنصارى في الضلال

عباد الله، مع رحلة الحجيج، مع الرحلة الروحانية، مع رحلة النور، وقفنا مع الحاج عند الكعبة، وما أدراك ما الكعبة؟!! هي البيت العتيق فهناك:

(الكرم عميم، والرب رحيم، وشرف البيت عظيم،

وحق الزائر مرعي، وذمام المستجير اللائذ غير مضيع)[1]

وها هو الحاج يلبي، وعندما يرى الكعبة يقطع التلبية، فإن كان متمتعًا؛ فإنه يطوف طواف العمرة، وأما المفرد والقارن فيطوفان طواف القدوم، يطوفون جميعا حول الكعبة.

ذلك عبد الله لأن المحرم إما أن يحرم بعمرة إذا كان متمتعًا أو في وقت غير شهور الحج، فهنا ينوي عمرة في الميقات، ثم يبدأ بالعمرة، وهي كالتالي: الطواف سبعة أشواط بنية، ساترًا للعورة متطهرًا، يبدأ من الحجر الأسود ويساره الكعبة ويطوف بجميع البيت فلا يطوف داخل الحجر، ويكمل سبعة أشواط مع الموالاة بين الأشواط يبدأ قائلًا: بسم الله، الله أكبر اللهم إيمانًا بك وتصديقًا بكتابك واتباعا لسنة نبيك ﷺ، ويكون مضطبعًا، مع الرمل في الثلاثة الأشواط الأُول، وعند الركن اليماني يستلم الحجر الأسود ويقول: (**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**)، ثم يصلي ركعتين خلف مقام إبراهيم بعد أن يكون قد ستر عاتقيه، وبعد ذلك يسعى سبعة أشواط بادئًا من الصفا إلى

[1] إحياء علوم الدين (269/1)، لأبي حامد الغزالي رحمه الله.

المروة ويدعو على الجبلين، ثم بعد ذلك الحلق أو التقصير، والحلق أفضل، وبهذا تكون قد تمت عمرته.

أما الحاج المفرد أو القارن؛ فإما أن يذهب مباشرة إلى مِنَى يوم التروية وهو اليوم الثامن، وإما أن يطوف طواف القدوم، وله أن يسعى بعده سعي الحج، وينتظر إلى اليوم الثامن، ثم يذهب الحجاج جميعًا إلى مِنَى.

إذا نظرت إلى الكعبة رأيت التاريخ الإيماني البشري، وها هو ركن الحجر الأسود، يقول ﷺ: (**الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ مِنَ الْجَنَّةِ**)[1]، ويقول ﷺ: (**إِنَّ مَسْحَ الْحَجَرِ الأَسْوَدِ وَالرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ يَحُطَّانِ الْخَطَايَا حَطًّا**)[2]، ويقول ﷺ: (**وَاللَّهِ لَيَبْعَثَنَّهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ يَشْهَدُ عَلَى مَنِ اسْتَلَمَهُ بِحَقٍّ**)[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (**نَزَلَ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ مِنَ الْجَنَّةِ وَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ**)[4]، يقول ابن الجوزي رحمه الله: (**لِيُعْلَمَ أَنَّ الْخَطَايَا إِذَا أَثَّرَتْ فِي الْحَجَرِ فَتَأْثِيرُهَا فِي الْقُلُوبِ أَعْظَمُ**)[5].

وقد قبل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحجر ثم قال: (**وَاللَّهِ إِنِّي لَأُقَبِّلُكَ وَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ، وَأَنَّكَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبَّلَكَ مَا قَبَّلْتُكَ**)[6].

ويكون في ذهنك واعتقادك وأنت تستلم الحجر أنك تبايع الله على طاعته، وكذلك تشتاق حينئذٍ إلى الجنة؛ لأنك تقبل قطعة منها، ولا تزاحم؛ فقد قال رسول الله ﷺ لعمر رضي الله عنه: (**إِنَّكَ رَجُلٌ قَوِيٌّ، لَا تُزَاحِمْ عَلَى الْحَجَرِ فَتُؤْذِيَ الضَّعِيفَ، إِنْ وَجَدْتَ خَلْوَةً فَاسْتَلِمْهُ،**

---

[1] أخرجه النسائي رحمه الله في سننه (2935)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح النسائي (2935).

[2] أخرجه عبد الرزاق رحمه الله في مصنفه (8877)، والنسائي وأحمد بلفظ مقارب، وصححه الألباني رحمه الله رحمه الله في صحيح الترغيب بلفظ مقارب (1139).

[3] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (961)، وقال: هذا حديث حسن، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (961).

[4] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (877)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (877).

[5] مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن (1/369)، لابن الجوزي رحمه الله.

[6] أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (1610)، وأخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه (1270).

وَإِلَّا فَاسْتَقْبِلْهُ، فَهَلِّلْ وَكَبِّرْ)[1].

ولهذا لما زاحمت مولاةٌ لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الرجالَ واستلمت الحجر مرتين أو ثلاث قالت عائشة رضي الله عنها: (**لَا آجَرَكِ اللَّهُ، لَا آجَرَكِ اللَّهُ، تُدَافِعِينَ الرِّجَالَ؟!! أَلَا كَبَّرْتِ وَمَرَرْتِ**)[2].

وعند الركن اليماني تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (**إِنَّ مَسْحَ الْحَجَرِ الأَسْوَدِ وَالرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ يَحُطَّانِ الْخَطَايَا حَطًّا**)[3].

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: (**لَمْ أَرَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَسْتَلِمُ مِنْ البيت إِلَّا الرُّكْنَيْنِ الْيَمَانِيَيْنِ**)[4].

الْيَمَانِيَيْنِ)[4].

وهناك في الكعبة الملتزم وهو ما بين الباب والحجر الأسود، وكان الصحابة رضي الله عنهم يلتزمونه كالمذنب المتعلق بثياب من أذنب في حقه، وقيل: إن الحسن البصري إذا رأى الملتزم يقول: (**تنحوا عني حتى أقر لربي بذنوبي**)[5].

وهناك الحطيم، قيل: إنه حجر إسماعيل، تحت الميزاب، وسمي بذلك لانحطام الناس عليه، أو لأنهم كانوا يحلفون عنده في الجاهلية فيحطم الكاذب، وقيل: لأن البيت رفع وترك ذلك محطومًا.

وفي رسالة الحسن البصري رحمه الله: (**أَنَّ الدُّعَاءَ مُسْتَجَابٌ هُنَاكَ فِي خَمْسَةَ عَشَرَ مَوْضِعًا: فِي الطَّوَافِ، وَعِنْدَ الْمُلْتَزَمِ، وَتَحْتَ الْمِيزَابِ، وَفِي الْبَيْتِ، وَعِنْدَ زَمْزَمَ، وَخَلْفَ**

---

[1] أخرجه أحمد رحمه الله في مسنده (190)، وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية ط هجر (7/ 536): "وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ لَكِنَّ رَاوِيَهُ عَنْ عُمَرَ مُبْهَمٌ لَمْ يُسَمَّ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ ثِقَةٌ جَلِيلٌ".

[2] مسند الشافعي رحمه الله (9870).

[3] سبق قريبا.

[4] أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (1609)، وأخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه (1267).

[5] إحياء علوم الدين (1/251)، لأبي حامد الغزالي رحمه الله.

الْمَقَامِ، وَعَلَى الصَّفَا، وَعَلَى الْمَرْوَةِ، وَفِي السَّعْيِ، وَفِي عَرَفَاتٍ، وَفِي مُزْدَلِفَةَ، وَفِي مِنًى، وَعِنْدَ الْجَمَرَاتِ)[1].

هناك الدعوات من القلب وبإخلاص، فقد جاءت امرأة من الأعراب إلى الحجر الأسود فسمعت طائفة منهم يدعون بدعاء حسن ويسألون مطالب لهم، فقالت: "اللهم إنك تعلم أني لا أحسن مثل دعائهم، وتعلم أني أسأل منك مثل الذي يسألون، فأعطني مثل ما تعطيهم" ثم انصرفت.

وبهذا الإيمان، وبهذه الحقائق، وحول هذه البركات، تبدأ الطواف الذي قال عنه رسول الله ﷺ: **(الطَّوَافُ حَوْلَ الْبَيْتِ مِثْلُ الصَّلَاةِ إِلَّا أَنَّكُمْ تَتَكَلَّمُونَ فِيهِ، فَمَنْ تَكَلَّمَ فِيهِ؛ فَلَا يَتَكَلَّمَنَّ إِلَّا بِخَيْرٍ)**[2].

وشرع الشارع الطواف والصلاة بعده في كل وقت، وقال ﷺ: **(يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا تَمْنَعُوا أَحَدًا طَافَ بِهَذَا الْبَيْتِ، وَصَلَّى أَيَّةَ سَاعَةٍ شَاءَ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ)**[3].

والطواف له فضل عظيم، فقد قال النبي ﷺ: **(مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، كَانَ كَعِتْقِ رَقَبَةٍ)**[4].

فلتعلم أنك بالطواف متشبه بالملائكة المقربين الحافِّين حول العرش، والمقصود من الطواف ليس جسمك فقط، ولكن قلبك أيضًا بذكر الله.

وقد يسأل سائل: لماذا الطواف عكس عقارب الساعة؟!

وسر ذلك: كأنك تطوف باتجاه الماضي لتتصل بالجذور، وتَعُبَّ من الينابيع الأولى، وترتبط بتاريخ النبوة الخالد مستحضرًا في هذه البقعة ذكريات النبي ﷺ، وكذلك تجول في ماضيك

[1] فتح القدير (2/508)، للكمال ابن الهمام رحمه الله.

[2] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (960)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (960).

[3] أخرجه الترمذي رحمه الله في سننه (868)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (868).

[4] أخرجه ابن ماجه رحمه الله في سننه (2956)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب (1142).

لتقف على أخطائك وذنوبك، واستشعر واسمع هذا الهدير الذي لن تخطئه أذنك بإذن الله وكأنه ترنيمة تقديس أو أنشودة تسبيح تنطق بها كل الكائنات لا الحجاج فقط، تأمل قوله تعالى: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[يس: ٤٠]، تناغم أنت مع الكون فالذي يطوف حول البيت إنما يساير سنن الله الكونية، ويتواجد مع مخلوقاته، ويصير ترسًا في نظام كوني محكم.

ونلاحظ عند الطواف أمرين؛ وهما: الاضطباع والرمل.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (**قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّهُ يَقْدَمُ عَلَيْكُمْ وَقَدْ وَهَنَهُمْ حُمَّى يَثْرِبَ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَرْمُلُوا الْأَشْوَاطَ الثَّلَاثَةَ، وَأَنْ يَمْشُوا مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ**)[1].

ولما رملوا في حجة الوداع أسرعوا فكانت سنة مستقلة.

وقد يسأل سائل: لم نرمل الآن ونضطبع ولا يوجد مشركون؟!

وذلك عباد الله لتظل عقيدة غيظ الكفار في الأذهان؛ أي أن النبي ﷺ فعل ذلك غيظًا للمشركين، وأنت تفعل ذلك أيضًا لتتذكر أن عليك كمسلم إغاظة أهل الكفر بتطبيق شرع الله في نفسك، وفي بيتك، وفي ما ولّاك الله عليه، وكذلك إصلاح مجتمعك وأمتك.

وكذلك أنت ترمل في الأشواط الثلاثة الأولى وكأنك هارب من ذنوبك وخطاياك، فعندما تمشي في بقية الأشواط فما هو إلا أن الرجاء قد ملأ قلبك بأن يغفر الله سبحانه وتعالى ذنبك ويقبل عودك.

[1] أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (1602).